ومن الواضح أنه في حالة نقله عن مصدر مكتوب، فان إشكالات النقل لا تقتضي ضرورة الخوض في جدل بـ «قال» و «قلت» يقطع تسلسل الكلام ويقود إلى استطرادات تخرج سيبويه عما يريد قوله بالتحديد في الفقرة الخاصة بين فقر بابه في النداء[1] والملاحظ أن سيبويه يتبع في هذا الأمر التقليد الذي ساد البدايات التأليفية، إذ نلحظ شيئاً من ذلك في كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (ـ ٢٠٩ هـ) وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ـ ٢٢٤ هـ) وكتب الحارث بن أسد المحاسبي (ـ ٢٤٣ هـ) من مثل: الرعاية لحقوق الله، والمكاسب، وفهم القرآن»، وكان المعتقد أن طريقة السؤال والجواب كانت تجريبية للإجابة على قدر السؤال[2] لكن ظهورها في مؤلفات بغرض الاستطراد يجعل من الراجح الذهاب إلى أن ذلك كان بسبب تقليد الحلقات في المساجد، وانتشار ذلك عن طريق مصنفات المحدثين، وربما كانت لأساليب المتكلمين الجدلية أخيراً آثار على مثل هذا النوع من التأليف، على أي حال فالذي لا شك فيه أن وجود هذه الطريقة في باب النداء من الكتاب أثّر على ترابط الباب، وأدى إلى بحث مسائل نحوية وصرفية لا تتصل بالباب اتصالاً مباشراً.

أما قضية الترتيب الداخلي التي عرضنا لبعض ظواهرها من قبل فتبدو بأوضح معانيها في تلك «اللامنطقية» التي لا تقتصر على ترتيب الفقرات، بل تشمل طريقة بحث المسائل داخل الفقرات أيضاً. فلا شك في أن سيبويه كان يملك في ذهنه فكرة ما عن طريقة تشكيل باب ما، لكن هذه الفكرة لم تكن من الوضوح والتفصيل بحيث يمكن تطبيقها، وربما أسهم في تعسّر ذلك الطريقة الشكلية القائمة على السؤال والجواب، والتي زادت التنظيم الداخلي للأبواب والفقرات فوضى واضطراباً.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨٣ ـ ١٩٠ ـ ١٩٦.

(٢) المحاسبي: العقل وفهم القرآن، دار الفكر بيروت ١٩٧١، ت. د. حسين القوتلي ص ١٢٦ ـ ١٢٧.